



الإخوان المسلمون

8 فبراير 2016

فضيلة الشيخ / إبراهيم مصطفى - باحث شرعي

سأل رجلٌ مهمومٌ حكيمًا فقال: أيها الحكيم لقد أتيتك ومالي حيلة مما أنا فيه من الهمِّ؟ فقال الحكيم: سأسألك سؤالين وأريد إجابتهما! فقال الرجل: إسأل؟ قال الحكيم: أجنّت إلى هذه الدنيا ومعك تلك المشاكل؟ قال: لا! قال الحكيم: هل ستترك الدنيا وتأخذ معك المشاكل؟ قال: لا! فقال الحكيم: أمزّ لم تأتِ به، ولن يذهب معك، الأجدر ألا يأخذ مِنكَ كل هذا الهمِّ، فكن صبورًا على أمر الدنيا .. وليكن نظرك إلى السماء أطول من نظرك إلى الأرض يكن لك ما أردت .. وابتسم دائمًا .. لأن رزقك مقسوم .. وقدرك محسوم .. وأحوال الدنيا لا تستحق الهموم .. لأنها بين يدي الحيّ القيوم.

هي أمةٌ أو جاريةٌ مصريةٌ لسارة وبوجد في التراث الإسلامي ما يؤيد ذلك وهي مكرمة في الإسلام، إنها والدة النبي إسماعيل. وذكر ابن كثير أنها كانت أميرة من العماليق وقيل من الكنعانيين الذين حكموا مصر قبل الفراعنة، إنها بنت زعيمهم الذي قتله الفراعنة، ومن ثم تبناها فرعون، وعندما أراد فرعون سوءًا بسارة دعت الله فشلت يدها، فقال فرعون: ادّعي ربك أن يشفي يداي وعاهدها أن لا يمسهما، ففعلت فشفي الله يديه، فأهدى إليها هذه الأميرة القبطية المصرية إكرامًا لها وليس خادمة كما يدعي اليهود في كتبهم، فأثرت سارة أن يتزوجها إبراهيم لأنها كانت تعلم أن إبراهيم كان يريد أن يكون له ذرية، فتزوجها، وهكذا حقق الله دعوة إبراهيم عليه السلام فحملت منه "قَبَشْرَتَاهُ يَغْلَامٌ حَلِيمٌ" سورة الصافات 101، بإسماعيل عليه السلام، إنها السيدة هاجر.

ولدت هاجر اسماعيل عليه السلام عندما بلغ إبراهيم عليه السلام السادسة والثمانين من العمر، وبلغت سارة سن اليأس من الانجاب، فتعاطمت غيرة سارة وبات إبراهيم عليه السلام في حيرة من أمره، كيف يستطيع التوفيق بينهما وهو في هذا العمر شيخ كبير.

وبدأ إبراهيم عليه السلام يناجي ربه، ويطلب أن يعينه ويساعده، فيشره الله بولد آخر تنجيه سارة "قَبَشْرَتَاهَا يَسْحَاقُ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ، قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ، قَالُوا أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ" سورة هود 71-73.

وبعد خمس سنوات من ولادة إسماعيل عليه السلام أنجبت سارة إسحاق عليه السلام وهكذا صار لإبراهيم ولدان: اسماعيل من هاجر، وإسحاق من سارة، ولحكمة أرادها الله، وتحاشيًا لما قد يقع بين الزوجتين وولديهما من الخلاف والمشاحنات أمر الله سبحانه خليله إبراهيم أن يخرج بإسماعيل وأمه هاجر، ويتعد بهما عن سارة، التي اعتمدت كثيرًا وثقل عليها أمر هاجر وولدها إسماعيل، بعد أن صار لها ولدًا.

أدعن إبراهيم لأمر ربه، فخرج بهاجر وابنها إسماعيل، وهو لا يدري إلى أين يأخذهما، فكان كل ما مرّ بمكان أعجبه فيه شجر ونخل وزرع قال: إلى ههنا يا رب؟ فيجيبه جبريل عليه السلام: إمض يا إبراهيم، وظل هو وهاجر سائرين، ومعهما ولدهما إسماعيل حتى وصلوا إلى مكة، حيث لا زرع هناك ولا ماء إلا حرّ الشمس.

أراد إبراهيم عليه السلام أن يترك هاجر وولدها إسماعيل، في ذلك المكان القاحل المقفر، حيث لا دار ولا طعام فيه ولا شراب، إلا كيسًا من التمر وقربة صغيرة فيها قليل من الماء كانوا قد حملوها معهم عند بدء رحلتهم، فخافت هاجر على نفسها الجوع والعطش، وعلى وليدها الهلاك، فتعلقت بإبراهيم عليه السلام تريد ألا تتركه يذهب، وراحت تسأله إلى أين تذهب يا إبراهيم وتتركني وطفلي في هذا المكان الذي ليس فيه أنيس، ولا زرع ولا ماء، ألا تخاف أن نهلك أنا وهذا الطفل جوعًا وعطشًا؟ رق قلب إبراهيم وتجير في أمره، ولكنه تذكر أمر الله له، فمادًا يفعل وهو إنما ينفذ ما أمره به ربه، وألحت هاجر في السؤال، وظل إبراهيم عليه السلام منصرقًا عنها يناجي ربه، ويأتي الجواب جازمًا حاسمًا لا تردد فيه ولا تراجع: إن الله هو الذي أمرني بترككم في هذا المكان، وهو لا شك لن يضيعكم، فلاذت أم إسماعيل بالصمت، ورضخت هي الأخرى لما أراه الله ثم قالت: إذن لا يضيعنا.

ورفع إبراهيم عليه السلام يديه بالدعاء متضرعًا إلى الله وهو يهيم بالعودة: "رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُونِ النَّبِيِّينَ بَيْتًا وَأَمْتَرْتُ الْمَاءَ فَاغْلَبْتَنِي فَانصُرْنِي بِقُدْرِكَ وَأَنْجِنِي مِنَ الْيَمِينِ" سورة إبراهيم 37، ثم هم عائداً إلى بلاد الشام حيث سارة، وقلبه يهوي إلى مكة وإلى ولده إسماعيل، ولا حيلة له إلا الدعاء والتضرع.

نفد التمر والماء من بين يدي هاجر، واشتدت حرارة القيط فعطشت هي وابنها، وراح يتلوى من الجوع والعطش فلم تعد هاجر تطيق رؤية طفلها على هذه الحال، فراحت تنظر إليه وعيناها لا تدري ماذا تفعل، أترك ولدها يموت جوعًا وعطشًا، لن تقف مكتوفة الأيدي أمام هذا المصير، فلا بد أنها ستجد الماء، فإله لن يضيعها هي وطفلها، وقامت هاجر في الوادي في "موضع السعي أيام الحج"، انطلقت هاجر تبحث عن الماء في كل اتجاه، وكان الصفا أقرب جبل إليها، فصعدت عليه وراحت تنظر يمنة ويسرة، وفي كل ناحية فلاح لها على المروة سراب ظنته ماءً، نزلت عن الصفا، ولكن لم تجده شيئًا، فوقفت منهكة تنظر وتتفحص فلاح لها سراب في الجهة الأخرى على الصفا وكأنه الماء فعادت مهرولة إلى الصفا ولكنها لم تجد هنالك شيئًا. وهكذا كل مرة، حتى فعلت ذلك سبع مرات وطفلها لم يفارق مخيلتها، ولم تطيق أن يغيب عن ناظرها، فلما كانت في المرة السابعة، وقد اشتد بها العطش، وأخذ منها التعب، وأنهكها المسير، دون أن تعثر على الماء، نظرت إلى طفلها فإذا الماء ينبع من تحت قدميه، فأنته مسرعة وراحت تجمع حوله الرمل وهي تقول زم زم، ثم أخذت تشرب من الماء حتى ارتوت وانحنت على إسماعيل لتسقيه.

فارتبطت بالمسبب (الله سبحانه وتعالى) لا بالسبب (السعي والاستشراق)، فالسعي والاستشراق لم يأتي بالماء ولكن وجدت الماء تحت قدم الوليد لأنها قالت: لا يضيعنا الله، فكان لوقع لا يضيعنا الله قيمة، وصدقت قضيتها.

ودل ذلك على اليقين بالله الخالق الرازق وعدم الفتنة في السبب المباشر لأن المرأة والوليد ليس لهم من أسباب الحياة إلا الرجل، والرجل تركهم فالمسألة لا تتعدى الأسباب إلا بوحي من المسبب، فاستغاثت بالخالق عن المخلوق، امرأة في مثل سنّها وفي مثل وحدتها مع وليدها، أراد الله أن يقول لها ليس بسيعك واستشراقك، ولكن بضربة من رجل وليدك الضعيفة. قال الله تعالى لمريم: "وَهَـزِي إِلَيْكَ إِذْ يَدْعُ النَّخْلَةَ" سورة مريم 25، يا مريم زاولي السبب، فهذا العمل لا يستطيع أقوى الرجال أن يقوم به وهو هز جرز النخلة، ولكن لبقاء السببية والمسبب معًا، فحينما تجد الماء تحت رجل وليدها لتفعل السبب وتؤمن بالمسبب فطلت هذه شعيرة من شعائر الحج.

ونذكر أنه كانت هناك امرأة كبيرة في السن بائعة دجاج على طرف قصر كسرى، فقالوا: إن كسرى يريد أن يضم إليه قطعة الأرض التي تفرش عليها هذه المرأة العجوز إلى باحة القصر، ذهبت المرأة كي تحضر خيط لتربط الدجاج، وقيل أن تمشي قالت: اللهم أستودعك دجاجي، أمر كسرى الحاشية أن يزيلوا الدجاج والفراش، فعادت المرأة، فلم تجد أثرًا لفراشها ودجاجها، فقالت: يارب أنا كنت غائبة، وأستودعت دجاجي عندك، فدخل ابن كسرى فقتل كسرى.

إن الإيمان متمثلًا في قصة هاجر رجلٌ يستودع الله امرأته ووليدته في صحراء من غير حول لهما ولا قوة، في واد غير ذي زرع، وأم تريد الماء لها ولوليدتها هو استبقاء الجمع بين سببية الأسباب بالجوارح، وبين سببية الحق في القلوب. قال تعالى: "إِنَّ الصَّاقَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ" سورة البقرة 158، كان ذلك حتى يقطع المسلمون صلتهم بالجاهلية، ويذكرهم ربهم بأنكم ستسعون بين الصفا والمروة جبلين ولكنكم ستسعون بالنية، فقداسة هذه الأماكن أقدس من أصنامهم (أساف على الصفا ونائلة على المروة)، وتلك شعائر معالم العبادة وبلا حظ فيه المكانية، فإن إساف ونائلة من شعائرهم وليس الصفا والمروة. وقال تعالى: "أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا" سورة النمل 62، فأين دعائك يا من أنت في ضيق، أو كربة من كربات الدنيا، أن استمساكك بالأسباب والمسبب، وليس بالأسباب فقط، قال صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي عن رب العزة: [يا دنيا اشتدي على أصفائي حتى يزدادوا شوقًا إلى لقائي].

وهنا في تعامل إبراهيم عليه السلام في هذا الموقف مع ربه، عندما وضع امرأته ووليدته في واد لا ماء فيه، ولا زرع، ولا أي إنسي، وذلك أمر لا يعقل، لكن إبراهيم عليه السلام قام بتطبيق أمر الله سبحانه وتعالى حتى وإن كان مخالفاً للعقل، يقول الإمام علي: (لو كان الدين بالعقل، لكان المسح أسفل الخف أولى من أعلاه)، وكان إبراهيم سببًا إلى ربه القادر الرحمن الرحيم، قال وهيب بن الورد: (إن استطعت ألا ينشيقك إلى الله أحد فافعل).

وقال موسى عليه السلام وهو محاصر، والبحر من أمامه هو ومن معه وفرعون وجنوده من خلفه: "إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ" سورة الشعراء 62، وعن أنس رضي الله عنه قال: حدثني أبو بكر الصديق قال: (قلت يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، قال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما) أخرجه البخاري.

يا صاحب المشكلة أو الهم، ولِمَا تَعْتَمُّ، وأنت تعلم أنه كلما زاد قربك من الله، كلما كان هناك ارتقاء في الابتلاء، كما حدث مع سيدنا إبراهيم عليه السلام، عندما كَلَّفَ بأهون تكليف وهي الرؤيا "إني أرى في المنام"، وكان من الممكن أن يميت الله إسماعيل دون تدخل من أحد، أو أن يسלט عليه غير إبراهيم فيقتله أو يذبحه، ولكنه كان بأشق تكليف على إبراهيم بأنه هو الذي

يقوم بذبح ابنه "أنبي أذبحك"، وعندما يذبح ابنه بسكين فما هي الخواطر التي تأتي في رأس ابنه من ناحية أبيه؟! ولكن إبراهيم أراد أن يشرك ابنه في الثواب "فانظر ماذا ترى"، واشترك الإبن في الرضا "افعل ما تؤمر"، والرضا هنا هو رفعُ اللَّقَدَر، وزيادة في الفضل أنعم الله على إبراهيم بولد آخر هو اسحاق، ويقول سبحانه: "فلما أسلما" لموافقة الأب والإبن ورضاهما يَقْدَرِ اللهُ، ففداه الله بذبحٍ عظيم، فهل لنا بعد ذلك إلا الله؟ وهل لك أخي وحبّة قلبي إلا الله؟ قم وتوضأ وصلّ ركعتين فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمرٌ قام إلى الصلاة، وعن رجلٍ من الصحابة قال: [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أرحنا بها يا بلال] أخرج الطبراني. فأبواب السماء للتوبة والقبول تُفْتَحُ لك أخي المسلم وقرّة عيني، هل لنا إلا الرضا بما قسمه الله لنا، فالرضا يرفع اللَّقَدَر، وليكن تنافسنا على كل خيرٍ، على الجنة التي عرضها السموات والأرض، قال تعالى: "وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ" سورة المطففين 26، فتلك هي المنافسة الحقة، ونقول كما قالت السيدة هاجر: (إذن لا يضيعنا) الله أبدًا.